التواصل
أسسه اللسانية ومقتضياته المعرفية

د. امحمد الملاخ
الكلية المتعددة التخصصات بآسفي
جامعة القاضي عياض، مراكش/ المغرب
elmellakh_mhammed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2017/06/05
تاريخ القـــبول: 2017/09/11

الملخص:

نسعـى مـن خلال هذا البحث إلى دراسة ثوابـت الفعل التواصلي في شقه اللساني، مركزيـن على تطور مجموعة من المقاربـات التـي جعلت من مكونات ووظائف الـسيرورة التواصلية موضوعا لها. وسنبين كيـف أن التحولات التي شهدتها مجموعة من الحقول المعرفية كان لها دور في تطوير الدراسات التواصلية باعتبارها مجالا علميا بينيا.

الكلمات المفاتيح:

المعرفية – التواصل- المقام – الاستدلال- السنن- النموذج- السيرورة- المنعطف- السياق

Communication: its linguistic basics and cognitive implications

Mhammed Elmellakh
Qadi Ayyad Universty. Marrakech. Morocco
elmellakh_mhammed@yahoo.fr

Abstract:

We aim through this research to study the basics of the communicational act in its linguistic aspect. Our focus will be on the development of the concept of communication in different scientific fields. Several models based on interdisciplinary approach contributed to the deconstruction of the components and functions of communication.

Key words:

cognition- models – communication – code- context –inference- turn- process

مقدمة:

اقترن البحث في ماهية التواصل ومكوناته وثوابته ووظائفه وآلياته بالتطورات المتلاحقة للحياة الاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية والتربوية للمجتمعات الحديثة.

تتقاسم مجموعة من العلوم النظر في مقومات التواصل ومقتضياته، ومن الصعب إيجاد قواسم معرفية ومنطلقات نظرية أو منهجية مشتركة بين هذه المقاربات. فهناك من جهة تنوع في تخصيص مجالات التواصل يعكس إلى حد بعيد القيمة المعرفية التي تحظى بها الظواهر التواصلية في مجموعة من التخصصات العلمية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر بعضا منها: التواصل الإنساني والحيواني، والتواصل التقني، والتواصل إنسان– آلة، والتواصل البين–ثقافي، والتواصل الجماهيري، والتواصل المؤسساتي، والتواصل السياسي، والتواصل الإعلامي، والتواصل الوسائطي، والتواصل الأدبي.... ويمثل هذا التنوع مشتلا علميا خصبا لتطور مقاربات بينية وعَبْرية تتداخل فيها العلوم وتتكامل في وصف الظواهر وتفسيرها، وقد تعزز هذا المنحى مع بروز تخصصات علمية دقيقة، تكشف توسعا جديدا لخريطة العلوم المعاصرة.

ومن حسنات هذا التوسع بناء نماذج جديدة للتواصل أو تعديل وسد ثغرات النماذج الكلاسيكية الموروثة عن نظرية الإعلام وصيغها المعدلة في النظريات اللسانية الوظيفية للغة. ويكمن الملمح البارز لهذه النماذج الجديدة في ارتكازها على منظورات علمية متنوعة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو التداوليات المعرفية أو تحليل الخطاب أو منظومة العلوم المعرفية عامة. ويشكل ذلك ثورة في النساج الإبستمولوجي العام لنظرية التواصل، فلم يعد بالإمكان الحديث عن نظرية موحدة وعامة منسجمة ومكتملة للتواصل؛ فالمشهد العلمي العام يكشف أننا إزاء ثورة نماذج للتواصل، نماذج ذات صلاحيات محدودة تصلح لما تنطبق عليه، تقترن بمجال مخصوص وصفا وتفسيرا[1]، لصعوبة احتواء تعقد الظواهر التواصلية الإنسانية في نظرية عامة، مثلما كان عليه الأمر مع نظرية الاتصال التي صاغ أسسها شانون وويفر. فثمة صعوبة في نمذجة عناصر الفعل التواصلي ومكوناته في مستوياته الفيزيائية والثقافية والنفسية والاجتماعية وفي رهاناته وأنماطه ووظائفه.

ينبغي إذن أن ننظر إلى كل نموذج في محاولته القبض على بعض محاور ارتكاز العملية التواصلية تاركا عناصر أخرى لنماذج مغايرة، تحتكم إلى منطلقات معرفية أخرى.

1- اتجاهات البحث في التواصل

يكشف راهن التنظير للتواصل اليوم عن انشطار انشغال المؤسسات الأكاديمية الدولية إلى ثلاثة أقطاب بحث كبرى:

- قطب أول: تتقاطع فيه علوم الأعصاب (بيولوجيا الأعصاب، فيزيولوجيا الأعصاب، صيدلة الأعصاب، سيكولوجيا الأعصاب، المعلوميات) والعلوم المعرفية (سيكولسانيات، المنطق، المعلوميات، السيكولوجيا المعرفية، اللسانيات). يشتغل هذا القطب بقضايا تقترن بعلاقة التواصل بالدماغ إدراكا وتمثلا ومعالجة للمعلومات.
- قطب ثان: تلتقي فيه العلوم المعرفية بالعلوم الهندسية (معلوميات، إلكترونيك، نماذج رياضية، آلية). يروم نمذجة خصائص ومكونات وعناصر التواصل

(1) . دافعنا عن تصور مماثل للعلاقة بين النظرية والنموذج في العلوم المعرفية المعاصرة في كتابنا: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات. ينظر، امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص82.

الإنساني ومحاكاتها وتقييسها، في إطار علاقة الآلة بالإنسان.

- قطب ثالث: مؤسس على العلوم الإنسانية والاجتماعية، ينشغل بمدى تأثير تقنيات التواصل (المعلوميات، وسائل التواصل عن بعد، الوسائل السمعية البصرية) على بنية المجتمع وأنساقه الفكرية والقيمية والاعتقادية وسلمية أدوار الفاعلين الاجتماعيين، وحجم التأثيرات السلوكية لتقنياته ومداها[1].

يمثل هذا التنظيم الثلاثي لأقطاب البحث المظهر التفاعلي للتخصصات العلمية، وذلك ضمن شبكات ومنظومات علمية مترابطة، تعكس توزع البحث الحالي بين المظهر التقني الصرف المنشغل بصورنة آليات التواصل ومحاكاتها بهدف بناء آلات قادرة على محاكاة المظاهر التواصلية للبشر، وثانيا المظهر الإنساني والقيمي الذي تسعى العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى استكناه تجلياته وقوانين اشتغاله.

وتنشغل الأقطاب الثلاثة مجتمعة بأسئلة محددة: ما هي الميكانزمات التي تعالج من خلالها الذوات الفردية والجماعية المعلومات والأخبار؟ كيف تتفاعل الذوات مع العالم المحيط بها؟ وهل يمكن نمذجة بعض تلك الميكانزمات ومحاكاتها بواسطة الآلة؟

2- التواصل اللساني: المقومات والآليات

سنركز فيما يلي على التواصل اللساني، مستحضرين اقترانه بالآليات العامة التي يستعملها الجهاز العضوي الإنساني للتواصل مع عالمه، وفي نهاية المطاف فالتواصل اللساني فرع من أنظمة التواصل المعقدة التي يحتكم إليها الكائن في تفاعله مع محيطه[2]. ومن ميزاته أنه تواصل متجذر في منظومات علائقية، يربط من خلالها الإنسان علاقته بالآخر وبذاته وبماضيه وبحاضره وبمستقبله وبالعالم المحيط به. فالتواصل يجري داخل الذات وعبرها وبينها وبين الذوات، ومن ثمة المظهر العلائقي الذي يحكم الفعل التواصلي الإنساني. فالميكانزمات التي يدبر بواسطتها الذهن ويدير التواصل اللساني، لا تنفصل عن الميكانزمات التي يستعملها في تواصلات غير لغوية، وإن كان التواصل اللغوي خاضعا لخصوصيات ينبغي استجلاؤها.

يمثل التواصل مظهرا مركزيا لجميع أشكال تبادل العلامات لفظية وغير لفظية بين البشر، ويبنى التسنين الثقافي وتنميط السلوكات الاجتماعية عبره[3]. فالأصل اللاتيني لكلمة «تواصل» معناه جعل شيء مشتركا بين طرفين، مما يبرز المظهر العلائقي والاجتماعي لعملية التواصل، لأنه يتجاوز حدود التواصل داخل الذات الفردية، التواصل الداخلي، نحو تقاسم/ نقل المعلومات والأفكار بين الذوات الاجتماعية.

يقتضي النشاط التواصلي اللفظي تفعيل آليات مركبة، يستعصي الإمساك بها خارج نظرية تستحضر تفاعل مجموعة من الملكات والكفايات وتشاركها. فالفعل التواصلي مركب في بنائه لعدة اعتبارات:

- أولا، لانشطاره بين سيرورة إنتاج وسيرورة فهم متداخلتين وغير منفصلتين في التبادلات اللفظية.
- ثانيا، لأن سيرورة استخلاص معنى الملفوظات والسيرورة التأويلية تتشكل وتتطور في كنف التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد.
- ثالثا، لأن السيرورة التواصلية بين الأطراف قد تنجح، وقد تفشل لاعتبارات تستلزم إمعان التحليل.
- رابعا، لأن المعاني والتصورات التي تتشكل في أذهان

(1) ينظر للتوسع: دومنيك فولطون، علوم التواصل، ضمن: التواصل نظريات ومقاربات، ترجمة عز الدين الخطابي وزهرة حوتي، منشورات عالم التربية، ص114.

(2) أبراهام مولز- كلود زيلتمان، التواصل، ضمن: في التداولية المعاصرة والتواصل، ترجمة وتعليق محمد نظيف، ص7.

(3) Olivier Houde, vocabulaire de sciences cognitives, pp 94-100.

الـذوات المتواصلة لا تحملها الرسائـل اللفظية كاملة، ثمة أشيـاء تترك للتخمـين وللافـتراض وللاستلزام وللتضمين.

- خامسا، لأنه بواسطة اللغة ننجح في خلق أفعال وأعمال وتغيير العالم الذهني للآخر.

- سادسا، لأن ثمة توترا بين غايات الكلام وأغراضه من جهـة وبين وسائلـه من جهة أخرى، ممـا يجعل الفعل التواصلـي مـشدودا إلى مبـادئ مـن قبيـل المردودية والملاءمة والنجاح والفائدة[1].

2- 1 نمذجـات التـواصل اللـساني: البدايات ومنعطفاتها

تتفـاوت نمـاذج التـواصل[2] في نجاعة رصدها للتعقيـد السالـف ذكره، ويرجـع هذا التفـاوت إلى تبايـن المنطلقات والمرجعيات. لكـن بشكل عام لا بد من رصد المحطـات التاريخية الكـبرى التي تشكلت في كنفهـا معظم التصورات حـول مكونات التواصل اللـساني وخصائصه ومقتضياته وأنساقه مع ربطها بمرجعياتها النظرية والمنهجية.

بدايـة لا بـد مـن الفـصل بـين الحـدس العام الـذي رافق التفكير في اللغة عـبر تاريخها من داخل المرجعيـات الإغريقيـة والعربيـة وغيرهـا، والـذي ربط بين اللغة والتـواصل، فاعتبار اللغة أداة تواصل مسلمـة ثاوية في أنساق معارف الحضارات السابقة، وبـين البحـث الدقيـق في الآليات وصياغـة القوانين والتفسيرات باعتباره مسألة حديثة.

تتشكل البدايـات مع نماذج الاتـصال والإعلام التي صاغهـا علماء رياضيون في مجـالات الاتصال عن بعد، وتحديدا الإرسال التلغرافي. أشهر النماذج مـا عرف بنموذج شانون وويفر، الذي تبناه مهندسو الاتصالات، واستوحـاه اللسانيون بعد ذلك لنمذجة عمليـات التـواصل اللساني. وهو نمـوذج ينبني على ثوابـت تمثـل العنـاصر المركزية في الاتـصال، وهي «المـرسل» مـصدر الرسالـة، قد يكـون فـردا أو آلة أو مـؤسسة، و «المـرسل إليه» أو «المستقبـل» يستقبل رسالة «المرسل»، و«الرسالة» وهي المعلومات أو الأخبار المنقولـة، ثـم «القنـاة» التي قـد تكون قنـاة صوتية أو مرئيـة أو آلة، و«الـسنن»؛ أي النظام الذي ينظم عناصر الرسالة ووحداتها، فإذا تعلق الأمر بالكلام المنطوق، فـالإشارة الصوتية ليست مجرد ضوضاء، وإنمـا رمـوز يحكمهـا نسق مـن القوانـين والقواعد التنظيميـة، يمثلهـا النسق اللغوي، فالنـسق يتوسط العلاقة بين الصوت والمعنـى. فالأفكار والأخبار يتم تسنينهـا في رسالة عبر وساطة الـسنن، الذي يشكل رأسمالا مـشتركا يتقاسمه المرسل والمستقبل، ويمثل مخزونـا ذهنيـا، يحتكم إليـه كلاهما لعقـد السنن وتفكيكه.

تشوب هذا التصور مجموعة من النقائص:

- حتـى ينسجـم مـع خصائـص النظـام اللغـوي الإنـساني نحتـاج إلى إغنائه، بعنـصر «المرجع» و«السياق» وهو ما سنلاحظه في النماذج اللاحقة التـي بنيت على نمـوذج شانون وويفـر، بما فيها نموذج ياكوبسون؛ فالرسالـة اللغوية تحيل على مرجـع واقعي أو متخيل، ويرتبـط النظام اللغوي

(1) إذا تأملنا الظاهرة اللغوية من منظور تطوري أحيائي، نجد أنفسنا أمام مسائل ملغـزة، فمـن جهة لا توجد قصدية إرادية بيولوجيـة للتواصل عنده، ولا حاجة كذلـك فطرية للتواصل على مستوى أعضائه الحية، ولا حاجة للفكر إلى كلام، لأن هنـاك ما يبين أن الفكر يمكن أن يقوم في الذهن/ الدماغ في استقلال عن اللغـة. ووفق هذا التصور يمكن التشديد على كـون التواصل اللفظي والتواصل عمومـا ظاهـرة انبثاقية مـن الناحية الأحيائيـة عن أنظمة معالجـة وتخزين المعلومـات ممثلـة في الاكتـساب والتعلـم والتخزيـن والتذكر والتمثـل، وربما عـن قـدرات معرفية أخـرى. انظر: مصطفـى بوعناني، التـواصل اللغوي بين المقتضيات اللسانية والمعرفية، ضمن: التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية، ص55 - ص 56.

(2) مـن أجـل رصد تصنيفي لنمـاذج التواصل، ينظر، نور الديـن رايص، نظرية التـواصل واللسانيـات الحديثـة. وانظر: امحمـد إسماعيلي علـوي، التواصل الإنساني: دراسة لسانية.

رأسا بالعالم، كما نتخيله أو كما نتمثله أو نعيشه، ولا يمكن أن يحيل على نفسه. والرسالة مربوطة بسياق إنتاج بشكل أو بآخر، بغض النظر عن كيفية تخصيصنا للسياق، أو النظريات التي يمكن أن نبنيها للسياق التخاطبي.

- إن عملية عقد السنن، تتحكم فيها مجموعة من المحددات النفسية والاجتماعية، ولا يمكن أن تكون عملية حسابية آلية تحتكم إلى مخزون ذهني ساكن من الرموز وقواعدها التنظيمية، وينسحب الأمر نفسه على تفكيك السنن لاستخلاص الخبر أو المعلومات، فعملية التفكيك ليست استخلاصا للمعنى بشكل آلي، بل هي تحيل على تدخل آليات فهم وتأويل، تحكمها محددات نفسية وثقافية واجتماعية.

- فكرة السنن المشترك والموحد الذي يتقاسمه المرسل والمرسل إليه، ضرب من التجريد والأمثلة؛ فهناك تفاوت في درجات امتلاك السنن والتحكم في عناصره، فالأفراد وإن تكلموا اللغة نفسها، فإنهم يتفاوتون في مخزونهم المعجمي، والمعرفي، كما أن سجلات اللغة عندهم غير متماثلة. ويمثل ذلك مدعاة ومسوغا لإدراج مفهوم اللغات الفردية كما ستبين كاترين كيربات أوريشيوني، والذي سيمثل عندها مدخلا مناسبا لمفهوم التعدد السنني.

يقابل وحدة السنن المزعومة مفهوم تعدد السنن. وسيتطور هذا المفهوم مع التعديلات التي طالت نموذج ياكوبسون في عوامل اللغة ووظائفها. ولنا عودة إلى الموضوع.

- التواصل بين البشر مقاصدي[1]، والأقوال لا تحمل المقاصد إلا بشكل جزئي، فالأقوال قرائن من بين أخرى للاهتداء إلى مقصد المرسل، فإذا كانت الملفوظات تحمل عددا غير محدود من الدلالات من الناحية المبدئية، يبقى إشكال التواصل مرتهنا بكيفية تحديد مقصد المتكلم والتعرف عليه، وينبغي الفصل بين الإخبار في العملية التواصلية والمعنى. فبدهي أن هناك مسافة تصورية بين الخبر والمعنى، الآلات يمكن أن تتناقل الأخبار لكن وحده البشر يتواصل بواسطة المعنى. ولقد كان سبيربر في تداوليته المعرفية موفقا عندما ميز بين القصد الإخباري والقصد التواصلي مستندا في ذلك إلى غرايس[2].

- تقوم المسلمة الضمنية في نموذج الاتصال على أن كل معنى أو فكرة أو تصور يرتبط بعلامة؛ أي أن كل ما يمكن تصوره يمكن ترميزه وتسنينه. فالعلامات أوعية للأفكار. ويصطدم هذا التمثل بصعوبات شتى، أولا، عالم العبارات وإن اتسع مداه، لا يمكن أن يحتوي عالم المعاني والمدلولات. ثانيا، العلاقة بين الملفوظ والمعنى ليست علاقة واحد بواحد. لا يوجد مقابل ملفوظ واحد معنى واحد. يمكن للملفوظ أن يحتمل تأويلات متعددة في سياقات تخاطبية متعددة. ويتعلق ذلك بما يسمى بمشكل الالتباس، زد على ذلك أنه إزاء قول نجد تضمينات واستلزامات لا تسننها أو ترمزها العبارة، فسيرورة بناء المعنى تبين أن التضمينات والاستلزامات تُستنتج ولا تُسنن.

- يصعب توسيع الطرح المذكور أعلاه إلى أنظمة علامات أخرى، من قبيل النصوص الأدبية، هل النص الأدبي حامل لرسالة محددة سلفا تسبق صياغته وتشكل بنياته وأنساقه؟ أليس

(1) تدعو بعض الأعمال إلى التخلي عن الصيغة القوية للقصدية، بدعوى أن التصور العقلاني الكارتيزي للذات، باعتبارها ذاتا واعية لأفكارها، لا يمكن التسليم به، في ظل نتائج التحليل النفسي، خداع الذات لنفسها والتضليل وسلطة الوهم، ثم هل القول محكوم بمقصدية أحادية أم هناك تعددية مقصدية؟ ماذا عن المقاصد الجماعية الثاوية في القول الفردي أو الأقوال التي لا يستطيع أصحابها أن يدافعوا عن مقاصد واضحة، الأقوال المبهمة المقاصد؟

(2) Anne Reboul. langage et cognition humaine. pp42- 43.

هـذا الطرح هو ما شكل مـأزق البنيوية في الأدب بادعائهـا وجود معنى محايـث يخضع لفك سننه مـن قبل محلـل مـزود بآليـات تحليـل البنيات، والبنيات أسنن لعقد المعنى/ الرسالة؟

وللخـروج من مـأزق محايثة المعنـى لحامل ما، وليكـن نـصا أو مـا شاكل، كان ينبغـي أن ننتظـر تطـور مجموعة مـن الـدراسات في العلـوم المعرفية والتداوليات الأدبية والنظريـة التلفظية وتطبيقاتها في حقل الأدب، ومؤدى المنعطف الجديد new turn، أن المعاني شديدة الاقتران بوضعيات تلفظية مركبة تتضمن المـرسل والمتلقي وإكراهـات مرتبطة بأنواع الخطـاب وبخصوصيـة الممـارسات الاجتماعيـة. وحتـى في علم دلالة الملفـوظ في التداوليات اللسانية تم التمييـز بـين مستويـين للمعنـى، أعنـي الإقـرار ببرنامجـين إمـا منفصلـين أو متكاملـين: برنامـج يحـدد الـشروط اللسانيـة للدلالـة داخـل الملفوظ، وبرنامـج يـدرس المعنـى في ارتباطـه بوضعيـات تواصليـة محددة. هـذه الصيغة أنتجـت على الأقل برنامجين علميين: التداوليـات المندمجة (مندمجة في الدلالـة)، والتداوليـات المعرفية التـي تقر بعدم انتماء التداوليات إلى اللسانيات أصلا، وإنما ترتبط مسائل المعنى بالعلوم المعرفية التي تبحث في شروط إدراك الذهن لمحيطه وفهمه.

- المـرسل إليـه مستقبـل سلبـي في هـذا النموذج، تصله الرسالة ولا يشارك في بنائها، ولا يسهم في سيرورة إنتاج العبارة، لأن ذوات التواصل منفصلة في هـذا النمـوذج. فالمعنـى ينتقل من مـكان إلى آخر، وعندما تتبادل الذوات الأدوار فذلك يتم في إطـار غير تفاعلي، لا توجد فيه تغذية راجعة. ولا وجـود في ظل هذا التـصور لأهداف التواصل من تأثـير في المرسل إليه وتعديـل معتقداته وسلوكه، ولا تحَكّـم المرسل في سيرورة الإنتـاج تبعا للآثار التـي حققها ملفوظـه أو لم يحققها، وليس هناك إمكانيـة للحديـث عن التأثـير على المـرسل إليه باستخـدام استراتيجيات خطابيـة تتنوع بحسب وضعيـات التواصل ورهاناتـه المرسومة سلفا. إن انعدام التفاعـل بين ذات المرسل والمرسل إليه في النمـوذج الاتـصالي الآلي سيتـم استبداله فيما بعد بما عـرف بالنموذج الأوركـستري الذي يقر بتفاعل الـذوات وبالبناء المـشترك للرسالة (كل مرسل هو مستقبل وكل مستقبل مرسل بالقوة).

- يحصر هذا النموذج وصفه في الرسائل الإخبارية البسيطة، غـير أن توسيعه إلى أنـساق سيميائية معقـدة مـن قبيـل الأساطـير والأدب والطقوس وغيرهـا مما يدخـل في سوق التبـادلات الرمزية بـين البـشر؛ أي كل أنـساق العلامـات المندمجة في كونه التواصلي، يبـين قصوره في وصف آليات اشتغالها.

- يفـترض هذا النموذج المرسل والمرسل إليه، ذوات غـير قابلة للانشطار، وسيتبين مع نظرية تعددية الأصوات مع ديكرو أنه ينبغي التمييز بين المتلفظ والمتكلـم، وأنه داخـل الملفوظ تتـصادى أصوات مختلفة (ديكرو، باختين).

- يتـم في ظـل هـذا الطرح، تـصور حياديـة القناة بالنظر إلى الرسالة أو الخبر، حيث تعتبر حاملا محايـدا، لا يعدل محتوى الخبر، غير أن البحوث المنجـزة في إطـار سيميائيات التـواصل وغيرها مـن التخصصات الحديثـة في تحليل الخطابات متعـددة الصيغ تبين أن الوسيط أو القناة يعيدان تشكيل المعنى. لنستحـضر الرسالة السياسية في التـواصل السياسي وتسنينها عبر قنوات وحوامل مختلفـة من قبيل الملصقـات أو شبكات التواصل

الاجتماعي أو قنوات التواصل الجماهيري من تلفزة وإذاعة وأنترنت. ويرتبط بهذا المشكل ما اصطلح عليه بالتشفير العبري. أضف إلى ما ذكر مشكل الاحتكام إلى أكثر من قناة في نقل الرسالة، فالتواصل اللساني عند البشر لا يعتمد على قناة واحدة، حيث تشتغل القناة السمعية والبصرية (حركات الوجه وتعبيراته، نبرات الصوت، حركات اليد) اختصارا ما يعرف بلغة الجسد. والإشكال هنا، كيف تتوزع عناصر الخبر/ الرسالة/ المعنى على أكثر من قناة؟ بتعبير آخر كيف يصير الجسد في كليته «حاملا» للمعنى، فالمعنى وأجزاؤه وعناصره موزعة على قنوات الجسد.

وانطلاقا من الملاحظات والاعتراضات السالفة الذكر يمكن أن نستجلي بعض العناصر التي تمثل مدخلا لتطوير نموذج للتواصل اللساني، نحددها في شكل أولي في صورة مفاهيم عامة. غير أن هذه المفاهيم ستجد طريقها نحو نظريات ستعمل على استدماجها لتبيان آليات اشتغال الفعل اللغوي. يتعلق الأمر بالمفاهيم التالية: السياق، المقصد، الأغراض، التأثير، تعددية السنن، تعددية المرجع، الاستنتاج، التغذية الراجعة، التشارك في بناء المعنى...

لقد كان ينبغي أن ننتظر تطور مجموعة من النظريات والاتجاهات داخل حقل اللسانيات وخارجها، للخروج من انحسار نموذج السنن الذي تكرس مع اللسانيات البنيوية[1]، ويتعلق الأمر بلسانيات الكلام والتداوليات وتحليل الخطاب ونظرية التلفظ ونظريات الحجاج وإثنوغرافيا التواصل والعلوم المعرفية ونظرية أفعال الكلام ونظرية المحادثة. لم يعد الأمر يُختصر في ملكة لسانية قائمة على معارف صوتية وصرفية وتركيبية تشكل قوام السنن لإنشاء التواصل، فالكفاية[2] التواصلية تتم بموجب ترهين كفايات متعددة تمثل كفاية السنن إحداها.

فعلى الرغم من الثغرات التي حفت النموذج الاتصالي في صيغته التقنوية (نموذج شانون وويفر) فإنه لا أحد يجادل في أهميته في تطوير البحوث المنجزة حول نقل الصوت أو الصورة، مع التحكم الكمي والرياضي في حجم المعلومات التي تنتقل عبر الآلات، مع الحد من سبل التشويش التي قد تؤدي إلى التخفيف من كم المعلومات المنقولة، أو تؤثر على وضوح الرسالة.

لقد أسفر التطور في تكنولوجيا وعلوم الإعلام والتواصل عن تجويد آلات قادرة على نقل الدفق الهائل للمعلومات بدقة وجودة عاليتين، ومازالت المجتمعات المعاصرة تجني ثمار هذه الثورة والتقدم إلى حدود الساعة.

يجب أن ننظر إلى هذا النموذج في حدود ما وضع له، ليس القصد منه صياغة نمذجة مدققة ومكتملة للتواصل اللساني والتواصل الإنساني عامة. إلا أنه ظل ثاويا خلف مجموعة من النماذج التي صيغت أو استدركت على ثغراته. وما يوحد مجموعة منها خاصة النماذج الواصفة للسلوك اللساني أنها قامت على النموذج السنني الذي يحضر بصيغ مختلفة بما فيها دورة الكلام عند سوسير التي تمثل تجليا من تجلياته.

2- 2 نمذجات بديلة: النمذجة بالكفايات والاستنتاج والوظائف بديلا لنموذج السنن

فيما يلي سنقدم في صيغة مختزلة أهم التعديلات التي طالت النموذج السالف الذكر:

– نموذج هارولد لاصويل: تأسس على التواصل

(1) . ينظر، مبارك حنون، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة»، ص141.

(2) . من أجل معالجة دقيقة لمفهوم الكفاية في النظريات اللسانية والمعرفية الحديثة ينظر، عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي: مقاربة لسانية وظيفية.

الجماهيري، وحاول ملامسة ثوابت النشاط التواصلي من خلال الجمع بين ذوات النشاط التواصلي ووظائفه وآلياته عبر الإجابة عن الأسئلة التالية: «من؟ ماذا يقول؟ بأية قناة؟ مع من؟ ما الأثر المتوقع من الكلام». ثمة انفتاح على تقنيات التواصل والتأثير المتوخى، مع الحرص على إدراج المحددات النفسية والاجتماعية.

- نموذج رايلي ورايلي: نجد في هذا النموذج تركيزا على محدد التفاعل، وانتماء الذوات المتفاعلة إلى مجموعات كبرى أو صغرى، محكومة بسياق ثقافي أو اجتماعي.

- نموذج بيرلو: يتضمن هذا النموذج تركيزا على مهارات التواصل والعوامل الثقافية والمعرفية، وحدود تمثل المتواصلين لأدوارهم الاجتماعية، مع التشديد على تسنين المعنى بواسطة الحواس والجسد[1].

لعل أهم ما يميز هذه النماذج تركيزها على السلوك التواصلي في شموليته، وعدم اقتصارها على البعد اللساني. ويعود ذلك إلى ارتباطها بمجالات تواصلية تستوجب استحضار بارامترات متنوعة مؤسسة للنشاط التواصلي مثل مجال التواصل الجماهيري. وبالموازاة تشكلت مجموعة من النماذج المؤسسة على البعد اللساني بغاية ضبط المقتضيات اللسانية والمعرفية المتحكمة في الفعل التواصلي المؤسس على اللسان، ولقد تشكلت داخل حقول معرفية متعددة مثل اللسانيات الاجتماعية واللسانيات الوظيفية والتداوليات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب.

لقد حاولت هذه النماذج الجديدة تجاوز ثغرات نموذج السنن، ومعظمها كما سنبين مؤسس على مفهوم متعدد للملكات وللكفايات، مبينة عدم صحة النماذج التي تقرن نجاعة الكفاية التواصلية بامتلاك القدرة اللسانية، وبالاستثمار الأمثل للموارد المعجمية أو التركيبية أو الدلالية، لأن هذه الموارد كما سيتبين مع هذه الدراسات تتحكم فيها مصاف متعددة، تحددها الاعتبارات الفردية/ النفسية/ الثقافية، أو الاعتبارات الجماعية/ المؤسساتية، واعتبارات نوع الخطاب الذي نستعمله، وبكلمة واحدة تشتغل هذه المصاف كقيود أو إكراهات متحكمة في سيرورة الإنتاج أو الفهم[2].

يتعين إذن، الإقرار، بمسألتين:

- **المسألة الأولى**: أننا إزاء تحول وانتقال من الاعتماد على السنن إلى الاحتكام إلى السنن والاستدلال.

- **المسألة الثانية**: ترتبط بتوسيع مفهوم الملكة التواصلية بالانفتاح على مفترض تفعيل الكفايات؛ أي أن الملكة التواصلية تنبني على ملكات متفاعلة في سيرورة الإنتاج والتأويل.

نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الأسماء والمحطات التي اقترنت بهذا التحول دون أن يكون غرضنا رسم منحى تطوري مضبوط: مفهوم القدرة التواصلية عند ديل هايمز، نموذج مستعمل اللغة الطبيعية عند سايمن ديك، مكونات القدرة التواصلية عند كنالي وسواين، نموذج كفايات التخاطب عند كاترين كيربات أوريشيوني، نظرية الملاءمة مع سبيربر وولسون.

ثمة قواسم مشتركة ومتغيرات بين هذه

(1) . حنون مبارك، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن»، ص143.

(2) . يمكن أن نلاحظ تحكم هذه المصاف والإكراهات في لعبة التصريح والتضمين في الخطاب السياسي. فكثرة التلميح والتضمين في خطاب السياسي، تحددها هوية أطراف التواصل وتمثلهم لأدوارهم، والنماذج الذهنية المكونة حول الخصوم المفترضين ووضعية التواصل...

المقاربات: يتحدد المشترك في كون الملكة التواصلية نتاج تفاعل مجموعة من الملكات، تخصص الملكة اللسانية المعرفة اللسانية الخالصة في استقلالها عن السياق، وتخصص الملكة الاجتماعية الضوابط الاجتماعية والثقافية لاستعمال اللغة من قبيل معرفة الهوية الاجتماعية وتحديد هرمية المتكلمين في السلم الاجتماعي، وتخصص الملكة التداولية مقتضيات استعمال اللغة في مواقف تواصلية محددة بما يتوافق والأوضاع التواصلية، مما يستلزم تفعيل سجلات لغوية خاصة رسمية أو محايدة أو حميمية، تكشف آليات التوافق بين النظام اللغوي والعقل الاجتماعي، أعني قدرة اللغة على التناغم مع تنظيمات اجتماعية غاية في التعقيد. ومن المعلوم أن هذه الملكات تقبل أن تتفرع إلى ملكات أدق، فمثلا لا مناص للقدرة التداولية من قدرة خطابية تمكن من إنتاج سلسلة من الملفوظات المنظمة، يمكن تنظيمها في سجلات نوعية مثل الخطاب الوصفي والسردي وغيرهما. ثم هناك الملكة الاستراتيجية؛ أي مجمل الاستراتيجيات التي يختارها الفاعلون في المجال التواصلي لبلوغ الأهداف التواصلية بكلفة أقل وباحترام للضوابط الأخلاقية والاجتماعية والثقافية المتحكمة في تواصلاتهم، يمكن أن تكون الاستراتيجيات لفظية أو جسدية.

وقبل أن يبدأ الاشتغال ببرنامج لسانيات الكلام ونظرية التلفظ، ينبغي أن نستحضر القيمة المعرفية لخطاطة ياكوبسون التي تأسست على إشكاليات وظيفية انبنت على تيمة محورية تتمثل في اشتغال السنن ووظائفه[1]، في إطار دينامي مؤسس على العوامل والوظائف التي تبرز مرونة النظام اللغوي وتعدد بنياته التي يمكن تسخيرها لأداء غايات وأغراض متنوعة، وهذا ما يبرز بجلاء من خلال الوظائف المختلفة المقرونة بعوامل التواصل اللفظي: المرسل/ الوظيفة التعبيرية، المرسل إليه/ الوظيفة التأثيرية أو الإفهامية، السياق/ الوظيفة المرجعية، الرسالة/ الوظيفة الشعرية، الاتصال/ الوظيفة الانتباهية، السنن/ الوظيفة الميتالسانية.

لقد ارتبط مشروع ياكوبسون بأجندة علمية مترابطة، ولذلك لا ينبغي أن تقرأ الخطاطة بشكل مختزل، كما يجري في كثير من الدراسات المختصرة، بمعزل عن طموح ياكوبسون العلمي، وهكذا تحدد المسعى عنده في ربط اللسانيات بعلم الشعر أو بالشعرية، أو ما يجعل من الرسالة اللفظية شعرا، مع ربط الشعرية بخصائص بنيات اللغة ووظائفها، ثم قرن خصائص النظام اللفظي بخصائص أنظمة علامات أخرى، من خلال إرساء برنامج للبحث في الخصائص المشتركة لأنساق العلامات. وهو ما ستضطلع به السيميائيات العامة. علاوة على الإقرار بمركزية التواصل، وباختراق الوظيفة التواصلية للوظائف الأخرى وإن احتلت مرتبة ثانوية، في إطار هرمية الوظائف وسلميتها، وهي هرمية محكومة بمفهوم المهيمنة. ويمكن البحث عن التراتبية وعن تجلياتها وعن آليات اشتغالها في أنماط مختلفة من الخطابات؛ لذلك أغنت نظرية الوظائف في صيغتها الياكوبسونية مجموعة من التحاليل المنجزة في نظرية النصوص والخطابات.

وإذ تأكد في كثير من الأعمال محدودية خطاطة، من نمط خطاطة ياكوبسون وما شاكلها، فلأن هذه المحدودية مردها إلى تأكيد مركزية التواصل،

(1) ينظر، باتريك شارودو ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، وبشكل أخص مدخل: التواصل ووظائف اللغة.

مقرونة بهيمنة النظام اللفظي ومركزيته[1]. ولذلك فتوسيع آفاق التحليل تقتضي النظر إلى التواصل اللفظي في إطار أشمل وهو نظرية الفعل التواصلي، كما تجسدها فلسفة التواصل أو النظريات التداولية الأنجلوساكسونية القائمة على الفعل والعمل، مثلما يقتضي الأمر الانفتاح على النظريات النفسية والاجتماعية حول التفاعل. بل كلما اتسعت دوائر التنظير للنشاط الكلامي عند البشر تبين أن أطروحة مركزية الوظيفة التواصلية تشوبها عمومية وتبسيط مفرطان. ففي سياق هذا الصرح النظري، ما هو الموقع الذي يمكن أن تحتله الوظيفة التضليلية أو اللعبية أو الإقناعية أو التسلطية أو الإرغامية؟ هل يسعى البشر فعلا إلى الحرص على إنجاح التواصل؟ ما موقع إساءة الفهم القصدية وعدم الفهم والتأويلات الخاطئة بين الأفراد والجماعات في هذا النظام؟[2] رغم أننا لا نعدم الأدبيات التي تؤكد مبدأ التعاون لإنجاح التواصل، وتدبير ممثلي acteurs الفعل التواصلي للمشترك لبلوغ الأهداف التواصلية، وضرورة إخضاع التواصل الاجتماعي لثوابت عقلانية تضبط أخلاقيات التواصل كما نجد عند هابرماس في تصوره للتداوليات الشاملة، فالأصل هو أن نخلق سياقات تواصلية للتعاون وللتوافق وللتراضي وليس للتنافر وللتنابذ، في إطار البحث الجماعي عن الحقيقة. لا شك أن اللغة مؤسسة اجتماعية، لكن هذه المؤسسة لا تحكمها قيم التواصل الشفاف ورغبة المشاركين في التفاهم وتقاسم المعارف، ثمة أهواء أخرى يتم تصريفها. وهكذا فمعظم النتائج ذات القيمة التجريبية المتوافقة مع حياة اللغة وتشكلاتها في المجتمع كانت نابعة من الاشتغال الدؤوب للسانيين الاجتماعيين ومحللي المحادثات وإثنولوجيي التواصل[3]. لقد أعادت كل هذه الحقول المعرفية تفكيك الأبعاد التجريدية والمتعالية لمفهوم التواصل، مبرزة مناطق جديدة للتواصل أو عدم التواصل ووظائفه. وبموجب هذه الثورات العلمية الجديدة انتقلنا من فضاء تعريفي مبسط نحتت معالمه اللسانيات الوظيفية نحو فضاء تعريفي بقيم دلالية وبمحمولات مفهومية جديدة لمفهوم التواصل.

حاصل ما سبق، أن هناك انتقادات طالت خطاطة ياكوبسون، امتدت نتائجها نحو تطوير خطاطات مدققة لسيرورة الإنتاج والتأويل، بل امتدت هذه النتائج نحو تطوير نظريات الأدب ووظائف أنواعه وأجناسه، كما سنبين، وفيما يلي بيان مقتضب لأهم النتائج المحصلة:

- هيمنة العنصر اللفظي في خطاطة ياكوبسون وتغييب للعناصر غير اللفظية ولفعاليتها في التواصل.

- اعتماد المعيار اللساني مبدأ يحتكم إليه في التعرف على الوظائف في الخطابات. فمثلا، هل هناك معيار لساني موحد يمكن الاحتكام إليه لتحديد الوظيفة الشعرية في الشعر العمودي وقصيدة النثر؟ أم أن الأمر يتحدد بإكراهات أجناسية؟ أم يمكن الركون إلى القصد؟

(1) . يستوجب نقد مركزية النظام اللفظي ليس فقط استدماج المكونات المصاحبة للنسق اللفظي، ما اصطلحنا عليه بلغة الجسد، وإنما التخلص من مركزية العلامة أو الوحدات الدالة المحددة في الكلمة وأجزائها المورفيمات، ففي النظام السيميوطيقي العام، كل شيء يمكن أن يكون دالا: تمفصل الفقرات، الترقيم، المسافة بين الأشخاص أثناء الكلام، الصمت.... ومرة أخرى ينبغي تخليص هذا التصور من سلطة التفسير القصدي؛ أي أن قصدية الذات ليست شرطا لتوليد الدلالة. فعناصر هذه الأنظمة تحمل شروط التدلال المقترنة بمحددات اجتماعية أو ثقافية، يمكن تفعيلها في سياقات تأويلية معينة، مثلما يمكن أن تبقى كامنة غير مفعلة.

(2) شهدت العقود الأخيرة تزايدا دالا في الدراسات المشتغلة على موضوعة التواصل بين-الثقافات، وذلك في ظل تصاعد خطاب الهوية والعنصرية والنبذ والتعصب ودور العولمة الثقافية في خلق أنماط تواصلية جديدة، تعيد نسج الروابط بين الثقافات وفق أفق قيمي جديد.

(3) . حنون مبارك، «عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن»، ص148.

- مشكل الأحادية، ويتحدد هذا المشكل في أحادية المرسل والمرسل إليه وأحادية السنن. ومن أوجه الاعتراض على تصور الأحادية، مسألة تعدد الأصوات في الملفوظات كما سيبين ديكرو، وكذلك في بعض الأجناس، مثلا في الرواية نجد الكاتب والراوي والشخصية الراوي (محافل تلفظية). وهناك ما يشكك في أحادية السنن داخل الملفوظات البسيطة والأنواع الأدبية، ففي الملفوظات التي نتواصل بها، لا وجود لسنن مشترك موحد في أذهان المتكلمين. فهناك تفاوت في السجلات اللفظية والتعبيرية وفي مخزون المعارف. كل ذلك يسهم في صياغة اللغات الفردية، ثمة مشترك دلالي جاهز وهناك المشترك الذي يبنى في التفاعل بين الذات؛ أي صيغتان للسنن، بدل صيغة واحدة، متكاملتان ومتفاعلتان، متمثلتان في السنن الجاهز والسنن المبني. ما يجعل التفاهم جزئيا بين الذوات هو كوننا نشترك في سنن جزئي، وأطروحة التجانس واهية. وفي الأنواع الأدبية يتأسس النظام الأدبي على تعدد السنن، خذ مثلا القصيدة العمودية، لديك السنن العروضي وسنن البناء المعماري وسنن الصورة الشعرية. ويزداد الأمر تعقيدا في منظومات ذات التعقيد السميوطيقي، مثل المسرح والسينما والتشكيل، والأدب التفاعلي، تقوم على مبدأ تعدد السنن، والرهان في مقاربة مثل هذه الخطابات يتحدد في كيفية تفاعل أسننها في عملية بناء المعنى، وكيفية استقبال المتلقي لهذا التعدد وتفكيكه.

- مشكل التسنين العبري[1] transcodage: ويتحدد هذا المشكل في ترجمة ونقل المعنى/ الخبر/ المعلومة من سنن إلى آخر. في المسرح يتم التسنين العبري لنص الكاتب عبر سنن المخرج وسنن الممثلين والسنن السينوغرافي، هذا المشكل عابر لأجناس مختلفة، الموسيقى، الترجمة، السينما، شبكات التواصل الجماهيري (القصيدة في اليوتوب: مقروءة ومرئية ومصحوبة بمشاهد فيديو). يمكن أن نخضع قيمة دلالية أو رمزية مثل العنف ضد الأطفال إلى تسنين عبري عبر أسناد مختلفة: تشكيل/ سينما / موسيقى / مسرح..

- تغييب الكفايات: في نقدها لخطاطة ياكوبسون، تقدم أوريشيوني[2] نموذجا للتواصل قائما على شطر الكفايات إلى كفايات الإنتاج وكفايات المؤول، باعتبارها ضامنة للتواصل اللغوي الناجح. على رأس الكفايات نجد تلازم الكفاية اللسانية والمصاحبة للسان نظرا إلى كون التبادل اللفظي متعدد القنوات، والكفايات التواصلية التي تتفرع عندها إلى كفاية بلاغية تداولية وكفاية ثقافية/ إيديولوجية وكفاية موسوعية وكفاية منطقية.

لقد حظيت الكفاية اللسانية من خلال مكوناتها بنصيب وافر من التحليل والوصف في تاريخ اللسانيات الحديثة، بينما غيبت الكفايات الأخرى، حيث تم تجاهل دور المعارف المسبقة وآليات الاستدلال التي تنتمي إلى منطق اللغة الطبيعي لاشتقاق التضمينات والاقتضاءات والاستلزامات، وكذلك دور الأحكام القيمية الإيديولوجية في التواصل الحجاجي، وتمثلات المشاركين لأدوارهم الاجتماعية وهرميتهم وتأثير هذا التمثل في إنتاج الملفوظات وتأويلها.

- الحاجة إلى تصور دينامي للسياق، لأن الصيغة التي طرح بها في خطاطة ياكوبسون، لا تمكن من

(1) .Francois Rastier. communication ou transmition

(2) .كاترين كيربرات أوريشيوني، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، ص ص283-290.

رصد أنماطه المتنوعة المحددة في السياق اللساني المرتبط بتماسك الأقوال السابقة واللاحقة، والسياق المباشر المحدد في وضعية التواصل كما يدركها المتخاطبون، والسياق الاجتماعي والثقافي، ونماذج السياق الذهنية المخزنة كتمثلات... ويستتبع هذا التصور الإقرار بتعدد مرجعي تقترن به الملفوظات.

- صياغة تصور دينامي (تاريخي وسياقي) للوظائف، لا تكتسب بموجبها الملفوظات وظائف ثابتة تبنيها وتحددها معايير داخلية (لغوية أو ما شاكلها). فالملفوظات تتغير وظائفها من سياق إلى آخر ومن منظومة ثقافية إلى أخرى ومن حقبة إلى أخرى؛ فالوظيفة الشعرية متغيرة وتاريخية وزمنية وسياقية. فالملفوظات الحاملة لوظيفة شعرية في سياق، قد تسند لها وظائف أخرى في سياقات أخرى.

- تستلزم نظرية الوظائف، حتى تكون قادرة على الاشتغال على النصوص والخطابات، تطويرا وتنقيحا؛ مما يبين أن كل النظريات التي ظهرت في القرن العشرين في أطر نحو النص ولسانيات النص لم تستغن عن مكون نظري مهم، ويتعلق الأمر بوظائف النص/ الخطاب (فان ديك- دوبوغراند...).

3- عن التواصل والتواصل الأدبي

سنخصص هذه الفقرة لمناقشة امتدادات النظريات المرتبطة بالفعل التواصلي في حقل الأدب، أو ما يمكن أن نصطلح عليه بالتواصل الأدبي. ففي سياق التوسع الذي تشهده النظريات من أجل نقل مفاهيمها وإجراءاتها التحليلية إلى مجالات تطبيقية جديدة مغايرة للمجالات التي مثلت مهادها التطبيقي، عرف حقل الدراسات الأدبية امتدادات تطبيقية دالة لنظرية التلفظ ولنظرية الأفعال الكلامية ولنظرية الحجاج، حيث برزت تداوليات أدبية تهتم بموضوعات منتزعة من مجالات التواصل الاعتيادي، لتشتغل على تمظهراتها في مجال الأدب. ومن بين هذه الموضوعات اشتغال المقاصد وحدود الالتقاء بين مقصدية الكاتب والقارئ في إطار ما يسمى بالمقصديات المشتركة (جيرار جينيت)، وتشكلات مبدأ «التعاون»، ذي الأصول الغرايسية، الضابط للتواصل بين المتخاطبين في عمليات صياغة الرسالة الفنية، وذلك من خلال مفهوم «الميثاق الأدبي» أو مفهوم «التعاون التأويلي» بين الكاتب والقارئ الذي طرحه منغونو أحد أهم المدافعين عن مشروع «التداوليات الأدبية».

وتعددت الأعمال في المجال الفرانكوفوني والأنجلوساكسوني المهتمة بتطبيقات نظرية أفعال الكلام في حقل الأدب، وقد وجدت الفرضية الإنجازية عند سورل مجالا خصبا للتطبيق في الدراسات المرتبطة بمجال المسرح تحديدا، وفنون الأداء لارتباطها «بفلسفة العمل»، التي ترى أن البشر لا يتواصلون انطلاقا من رموز مخزنة وخطاطات عمل مخطط لها سلفا بشكل واع قبل إنجاز الفعل، فمعنى السلوك يبنى أثناء الفعل، ففي الخشبة يمكن لنفس الممثل أن يؤدي الدور نفسه/ الحركات/ التعبيرات عدة مرات بدلالات مختلفة، إنها نظرية لاتمثيلية للسلوك، بمعنى أن السلوك ليس انعكاسا لتمثيلات وخطاطات ذهنية جاهزة وثابتة. ولقد عرفت النظرية الإنجازية، التي تسمى في الأدبيات الأنجلوساكسونية الحديثة بالمنعطف الإنجازي performative turn، تطبيقات مهمة في مجال فنون الجسد وفنون العرض الوسائطي.

وينبغي أن نستحضر في هذا السياق انعطاف نظرية أفعال الكلام نحو النصوص والخطابات، بما فيها الخطابات الأدبية، بعد أن تشكلت في إطار مقاربة وصفية

في كنف الاشتغال الوصفي على جمل منفصلة، لقد تحول الاهتمام إلى البحث في كيفيات ترابط/ تماسك أفعال الكلام داخل الخطابات لتشكل فعلا كلاميا أكبر macro act (فان ديك).

كما تزايد الاهتمام بنظرية المقام وتشكلاته في الخطاب الأدبي، وبعلاقة الأدب بالمؤسسة (سكاربيت)، وتحديدا مختلف الإكراهات والقيود السوسيولوجية والتاريخية التي تؤثر في سيرورة إنتاج «الأثر الأدبي» وتلقيه. كما برزت في العقود الأخيرة، في إطار التداوليات المعرفية، مجموعة لافتة من البحوث الدقيقة المنجزة حول مباحث قديمة/ جديدة في حقل الأدب، ويتعلق الأمر بالاستعارة والتخييل والمثل (موشلير، آن ريبول).

4- آفاق جديدة لدراسة التواصل: المنعطف المعرفي

فتحت العلوم المعرفية آفاقا رحبة لدراسة الذهن، من خلال الاشتغال المتعدد الاختصاصات على الآليات التي يستخدمها الدماغ لاكتساب المعارف والمعلومات وتخزينها وتمثيلها ومعالجتها؛ ذلك أن الدماغ يتضمن في هندسته الوظيفية مناطق نشيطة تمثل الاشتغال المعرفي لمناطق/ باحات متخصصة في أصناف من المعالجات دون أخرى، وتترابط مناطقه وأحيازه عبر شبكات عصبية، تقوم على تنسيق المعلومات؛ لأنه يعتمد معالجة موزعة ومتوازية.

لقد حققت العلوم المعرفية ثورة علمية، حتى غدت الأنموذج الجديد new paradigm، في مجالات متنوعة مثل الأنثروبولوجيا والذكاء الاصطناعي وعلم النفس وعلم التربية وعلوم اللغة والدراسات الأدبية[1].

لقد سادت مغالطتان في التصور التمثيلي والتصور الماصدقي للغة، تقوم المغالطة الأولى على فكرة أن اللغة تمثيل للفكر إلا أن هناك ما يؤكد أن التفكير يمكن أن يكون بدون لغة، وذلك بواسطة صور أو رموز أو خطاطات، والمغالطة الثانية مفادها أن كل ما نعرفه عن العالم يأتي عن طريق اللغة، التي تعكس تمثيلاتنا الفكرية للعالم، غير أن الدراسات في العلوم المعرفية بينت أن ما نعرفه عن العالم يأتي جزئيا عن طريق اللغة، وأن هناك مستوى معرفيا وسيطا يسمى بالبنية التصورية (راي دجاكندوف) يتوسط علاقة الذهن بالمحيط الخارجي، ففيه ترمز التمثلات الداخلية لإدراكاتنا للعالم الخارجي؛ لأن العالم يبنى داخليا في بيئة الذهن/ الدماغ.

إن التواصل لا يمكن أن يحدث إلا بواسطة رموز اتفاقية مخزنة في الدماغ، ومن مهام العلوم المعرفية الإبانة عن كيفية اكتساب هذه الرموز في سيرورة النمو، وكيفية تخزينها ومعالجتها على الخط on line أثناء الإنتاج والفهم، وهل هناك تماثل بين الأفراد في تمثيل ومعالجة عناصر النظام التواصلي.

فمن المعلوم أن مختلف المعلومات المرتبطة بالنظام اللفظي، صوتا وصرفا ومعجما وتركيبا ودلالة، منظمة في الدماغ بشكل يسمح باستعمالها في سيرورة الإنتاج والفهم. فأثناء الإنجاز يتم اجتلاب التمثيلات/ التسنينات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية المخزنة في الذاكرة من مناطق مختلفة، وترسل إلى مناطق المعالجة ثم ترسل التعليمات إلى الأعضاء المحركة (جهاز النطق) ليتم نطقها متسلسلة.

ويتضمن مسار الإنجاز والفهم انتقالا من النظام التصوري إلى النظام اللساني ومن اللساني إلى المفهوماتي/ التصوري[2]، ويتم هذا الانتقال وفق

(1) .Andler, Daniel, introduction aux sciences cognitive.

(2) يقترح بيرنار بوتيي في النموذج الذي يقدمه للتواصل، المبني على مقتضيات معرفية، رسم مسارات محددة للفعل التواصلي، قوامها صياغة تصورية قبل-تلفظية يتم تحويلها إلى تسنينات لسانية، ومن جهة أخرى يجمع المرسل والمتلقي مقاما ومعرفة موحدة بالعالم وتصميما معرفيا موحدا مبني على معارف موحدة بينهما حول العالم، تضمن المعرفة الموحدة والتصميم المعرفي الحد الأدنى من التوافق والتناغم بين الذوات المتواصلة. فوجود توافقات نورولوجية ولسانية واجتماعية ضامن لتناغم أدمغة المتخاطبين في حده الأدنى.
Pottier, theorie et analyse en linguistique.

إجـراءات تسترعي التوافق ومقتضيـات السياق، بمعنى أن المعالجـة التـي تربط اللغـة بالمقام تقتـضي تنشيطا متوازيـا، للمعلومـات اللسانية والمقاميـة. وهذا ما تبينه الدراسات النورولوجيـة التي أقرت بتفاعل الشق الأيسر للمـخ المخصص في المعالجـة النحوية مع الـشق الأيمن المخـصص لمعالجـة مهـارات الكفـاءة التواصلية، على رأسهـا المهـارات غـير اللفظيـة والتفاعليـة والمعلومات المتعلقـة بالسيـاق، والتعـرف علـى الوجـه وتعبيراتـه والحـركات والنوايـا. فاستعمـال اللغـة يقتـضي تفعيلا متكامـلا للكفاءة اللسانيـة وكفاءات تواصليـة وتداولية غير لفظية[1].

تمثـل دوائر البحـث في العلوم المعرفيـة إطارا علميا متطـورا لتطويـر آليـات وصف أنظمـة التـواصل عنـد البـشر وتفسيرهـا. وبذلـك اتـسع طمـوح مجموعة من التخصصات التقليدية من قبيل علم الدلالة أو التداوليات أو الدراسات الأدبية نحو استدماج أنموذج العلم المعرفي، لاستكـشاف أو إعادة اكتشاف مباحث كلاسية، من قبيل سيرورة الفهـم أو التأويـل أو التفكيـك أو تفاعـل الذات المنتجة للنـصوص مع الأثر الأدبـي أو تفاعل القارئ مع النصوص.

وفيما يلي سنركز على إطارين معرفين في ارتباطهما بمجالين مـن مجالات التواصل، وهمـا التواصل اللفظي وغير اللفظي والتواصل الأدبي. ويتعلق الأمر بالتداوليات المعرفية cognitive pragmatics من جهة والشعرية أو السرديـات المعرفيـة cognitive poetics- cognitive narrative من جهة أخرى.

عمل سبيربر وولسون في إطار التداوليات المعرفية على فك الارتباط بين التداوليات واللسانيات[2]، فالتداوليات يجـب أن تكون مبحثا تابعا لعلم النفس المعرفي، حيث إن تأويل الملفوظات متجـذر في آليات عامة للفهم ولاشتغال العمليـات المعرفية التي يعد الذهن مركـزا لها. تتمحور الأطروحة المركزية لـ«نظرية الملاءمة» عندهما حول نقد نموذج السنن الذي هيمن على نماذج التواصل، فقد بينا بمـا فيه الكفاية أن التـواصل بين البـشر يعتمد إواليتين متفاعلتـين ومتكاملتـين، وهما إواليـة التسنـين وإوالية الاستنتاج. والفكرة هنا أن الملفوظات لا تحمل المعنى سوى بصورة جزئية، وأنظمة معالجة المعنى معالجة لسانية في الذهـن لا تـسنن سوى جزء من المعـاني القصدية؛ لأنها تعالج المعنـى اللغوي بشكل محلي ومستقـل عن السياق، ولذلـك تأتـي إواليـة الاستنتاج لإغنـاء تأويـل الملفوظ، بالانفتـاح على المحيـط المعرفي للمتخاطبـين. فما يمكن للتسنـين أو لفـك التسنين اللسانيـين أن يبلغاه متمثل في تمثيـلات جزئية ومجـردة وغير مكتملـة للمعنى، ينبغي إغناؤهـا، بتضمينـات وافـتراضات. ليـس كل ما يمكن أن يقـال يرمـز بواسطة النظـام اللغـوي، فالتضمينات والمقاصد لا ترمزهما اللغة.

وفي ظل هـذا التصور تتحول الأقوال إلى منبه ضمن منبهـات توجد في المحيط المعـرفي للمتخاطبين وظيفتها إبـراز القـصد، ويتمثـل دور المـؤول في استعمـال آليات استنتاجيـة للتعـرف على قصد المـرسل. ومن المفروض أن يكـون هذا الملفوظ في سيرورة إنتاجه ملائما للسياق، مثلمـا أن المؤولين يعملـون جاهدين على إنتـاج تأويلات ملائمة للأقوال واستبعاد التأويلات غير الملائمة. فمبدأ الملاءمة مرتبـط بالنظام المركزي للذهـن الذي يشتغل بمبدأ المردوديـة، والذي يعمل على إنتـاج تمثيلات تامة للملفوظـات بواسطة الاستنتاج، وهـي تمثيلات خاضعة للسيـاق بعكـس إواليـة التسنـين المستقلة عـن السياق. وبموجـب مبـدأ الملاءمـة يستعمـل المتخاطبـين كل مـا يمنحهـم محيطهم المعرفي من قرائن لبنـاء الفرضيات

(1) ينظـر، بنعيـسى زغبـوش، الـسيرورة التواصلية والكفـاءة اللغوية بين علوم الأعـصاب وعلم النفس المعرفي: نمـوذج اللغة المنطوقة ولغـة الإشارة، ضمن: التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية، ص24.

(2) Dan sperber, Derdre Wilson,Relevance communication and cognition.
Dan Sperber, Derdre Wilson, Meaning and Relevance.

الـواردة والمسهمة في التأويل الصحيح. وفي هذا التصور ليس السياق عنصرا ثابتا، وإنما يبنى ويعدل طيلة عملية الفهم والتأويل[1].

وبخصوص الشعرية المعرفية والسرديات المعرفية[2]، فنحن إزاء مبحثين نخالهما متطورين ضمن الدراسات الأدبية، فمجموعة من قضايا المبحثين ذات ارتباط وثيق بإشكاليـة التواصل الأدبي كمـا سنبين. فمن بين المسائل التي استأثرت باهتمام المتخصصين في الشعرية المعرفية والسرديات المعرفية: كيفية بناء الأذهان للتمثيل السردي، والـدور الذي يلعبه التخييل في حياة الفكر وتطور الذكاء الإنـساني، وكيفيـة تفعيل القرائن والبنيـات النصية في النـصوص الأدبية وتنشيطها لسيرورات معالجة معرفية في أذهـان قـراء الأدب ومستقبليـه، وآليـات بناء المعنى في الأدب مقارنة بالـسيرورات المعرفية التي يبنى بها في مجالات لغوية ومعرفية غير أدبية (الإسقاط الاستعاري وآلية الدمج...)، الـدور الذي تلعبه الوسائط (السمعية والبصرية واللفظيـة) في بناء أنماط معينة من المعالجة الذهنيـة لظاهرة التسريد وتعديلها، ومثال ذلك المقارنة بـين التمثيل الـسردي في الروايـة والسينمـا والموسيقى والـرسوم المتحركة، وهنا يطرح مـشكل التسنين العبري المشار إليه سابقا، ويتحدد في تقنيات ترجمة ونقل السرد من وسيط لآخر.

وتمثل الشعريـة المعرفية لكثير من الدارسين مقاربة جديدة ونوعية لأقطـاب التواصل الأدبي الثلاثة: الكاتب والنص والقـارئ. من منطلق فتح الجسور بين الإنتاجية باعتبارهـا سيرورات معرفيـة تتخذ تـشكلات وتجليات نصية، تثير الفاعليـة التأويلية لدى المتلقي. وتكمن جدة هـذه المقاربـة في قدرتهـا على صهـر ثلاثـة منعطفات تشكلت في تاريخ الدراسات الأدبية:

- **المنعطف الفينومينولوجي**: الـذي قام على دمج بعد النص بمظاهـره البنيويـة الداخلية بالبعـد النفسي والذاتي للقراءة باعتبارها تجربة فردية وذاتية.
- **المنعطف البنيوي**: المـؤسس على موضعة المعنى خارج الـذات، مـن خـلال البحث عـن قوانين بنائـه داخل النص.
- **المنعطف المعرفي**: المبني علـى ربط البنيـات النصية بالنـشاط الذهني للقراء وبآليـات معالجة المعلومات كما تتم في أذهان المتلقين.

خلاصات واستنتاجات:

سعينـا من خلال هذه الـدراسة إلى تقـديم مقاربة ذات منحيين:

- منحـى تاريخـي: توخينـا مـن خلالـه رصد المحطات الكبرى لتطور مفهوم التواصل في حقول معرفية شتى، مبرزين مختلف تحولاته.
- منحـى إبستمولوجي: الغرض منـه تفكيك مفترضات النظريات التي حاولت صياغة نماذج لوصف النشاط التواصلي عمومـا، والتواصل اللفظي خصوصا. وكان لزامـا لهذا التفكيـك أن يمر عبر مسالـك استجلاء الشبكة المفاهيميـة التي يندرج فيها مفهوم التواصل، وتمثـل عناصر هـذه الشبكة دعائم الفعـل التواصلي تنظيرا وممـارسة. ويتعلـق الأمر بالمفاهيـم التالية: السنن- المرجع – المقام – المرسل – المرسل إليه.

لقـد بينا أن نقد هـذه المنظومـة المفاهيمية صاحبه ظهور مفاهيم أخرى، مثل مفهوم الكفايات التواصلية.

إن التنظير للتواصل قـد تطور في إطار مقاربة بينية وعبرية، تتأسس على تفاعل العلوم وتكاملها. ولقد اغتنى

(1) . ينظـر، عبـد السلام عـشير، عندما نتواصل نغـير، مقاربـة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، صص33-37.

(2) . نعتمـد في هذه الفقرة على القضايا التي بسطناهـا في مداخلتنا ضمن اليوم الدراسي المنظـم بالكلية متعددة التخصصات بآسفي حول السرديات وعنوان مداخلتنا: السرديات المعرفية: آفاق جديدة لتحليل الخطاب السردي.

حقل الدراسات التواصلية، باندماج قضاياه ضمن انشغالات مجموعة من العلوم مثل التداوليات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب وتحليل المحادثة...كما حاولنا استحضار بعض امتدادات منظومة العلوم التي اشتغلت على تيمة التواصل وتجلياتها وآلياتها في سياق حقل الأدب، في إطار ما يعرف بالتواصل الأدبي.

ومنتهى القول إن مستقبل الدراسات التواصلية يكمن في الانخراط في برامج بحث بينية وعبرية، من خلال التموقع في منظومة التخصصات والمقاولات العلمية الجديدة، من أجل تجديد قضاياها، واجتراح آفاق جديدة لتناول القضايا الكلاسيكية للتواصل بأدوات علمية متجددة، تحتاج إلى استنبات في الممارسة العلمية عندنا، بغاية إنتاج جيل جديد من البحوث والباحثين.

بيبليوغرافيا:

العربية:

- امحمد إسماعيلي علوي، التواصل الإنساني: دراسة لسانية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2013م.
- امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2009 م.
- باتريك شارودو ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سناترا، تونس، الطبعة الأولى، 2008م.
- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م.
- عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي: مقاربة لسانية وظيفية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012م.
- عز الدين الخطابي وزهرة حوتي، التواصل نظريات ومقاربات، منشورات عالم التربية، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2007م.
- كاترين كيربرات أوريشيوني، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2008م.
- مبارك حنون، عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها: قراءة في مصير وظائف اللغة، ضمن مجلة البلاغة والنقد الأدبي، عدد 3، 2015م.
- مجموعة من الباحثين، التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية، منشورات مختبر العلوم المعرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، الطبعة الأولى،2011م.
- محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التوليدية، إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2010م.
- محمد نظيف، في التداولية المعاصرة والتواصل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2014م.
- نور الدين رايص، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس-فاس، المغرب، الطبعة الأولى، 2007م.

الأجنبية:

- Andler Daniel ; introduction aux sciences cognitive, folio essais, 2004.
- Anne Reboul, langage et cognition humaine, PUG, 2007.
- Dan Sperber, Derdre Wilson, Relevance communication and cognition, Blackwell, ed. second edition, 1995.
- Dan sperber, Derdre Wilson, Meaning and Relevance; Cambridge university press, 2012.
- François Rastier, communication ou transmition, césure, N8, 1995.
- Olivier Houde, vocabulaire de sciences cognitives, PUF, 2003.
- Pottier Bernard, theorie et analyse en linguistique, Hachette, Paris, 1987.